فى نظرة الناس إلى أنفسهم ونظرتهم إلى الحياة كلها ، ثم يقول إن الفرزدق لم يكن يريد شخص جرير وحده ، وإنما ينصب جريرا مثلا للمجتمع . الفرزدق يهجو المجتمع من حيث يشعر أو لايشعر ، وكذلك جرير . فليس الهجاء ـ إذن ـ لهوا ولاخصومة عارضة ضيقة وإنما الهجاء نقد للمجتمع كله . والدليل على ذلك أن الهجاء وجد صدى واسعا ، وأن الناس تهالكوا على روايته وحفظه ، وإذا كانت الملهاة اليونانية مضحكة فى الظاهر باكية فى حقيقتها فالهجاء العربى لهو فى ظاهره ، مر فى قراراته ، وما يضحك الناس من هذا الهجاء أشد سوادا من المأساة . وهذا مثل يضربه الدكتور طه لكى يذكر القارىء على الدوام بأن الأدب العربى ، والشعر خاصة ، أعمق مما يتوهم الدارسون . ولكن طه معنى فيما أظن بشعر المديح وإن كان لايفصح عن ذلك . يقول : إن القرن الثانى لم يكد يتقدم حتى انتهت هذه الاضطرابات إلى غايتها ، وقد خيبت ثورة بنى العباس ـ فيما يقول ـ آمال كثير من المثقفين ، ومن أجل ذلك وجدت الدولة الجديدة مقاومة من أنصارها بعد أن ظفرت بخصومها ، قاومها الشيعة والخوارج جميعا بأساليب مختلفة ، وظلت المطالبة بالعدل قائمة ، وزاد النظر فى المشكلات الفلسفية تعمقا ، وترجم ابن المقفع كتبا فى التخويف من السلطان ، وظهرت الزندقة أو شاعت حتى نصبت لها الدولة حربا لا هوادة فيها .

« ٢ »

ومن الغريب أننا نزعم أن كثرة المدح لم تكن إلا رياء ووسيلة لكسب مايحتاج إليه بعض الناس من الترف ، ولكننا لانمضى فى هذه القضايا إلى آخرها ، ولانتصور أن المدح كان يخفى فى داخله أحيانا سخطا قليلا أو كثيرا ، وحيرة واضحة أو غامضة ، وإحساسا بصدى المشكلات التى تتعمق المثقف . ومن الغريب أن الباحثين قد يتحدثون عن التشاؤم الذى أخذ يتصور مذهبا له عماده الفلسفى ، ويتحدثون عن إخفاق بعض الناس فى إرضاء العقل . ولكننا ـ إذا عرضنا للمديح ـ ألقينا هذا كله وراء ظهورنا . ولننظر كذلك فى القرن الثالث الذى يتقدم فتزداد أمور المجتمع تعقيدا . ومظهر ذلك التعقيد أو الاضطراب هو الثقافة الممتازة التى تتسلل إلى بعض الطبقات من ناحية ، والثراء الضخم وضعف السلطان السياسى من ناحية ثانية . هذه الملاحظات مفيدة دون شك ، وقد تعنى أن باطن هذا المدح يجب أن ينبض ولو قليلا بآثار هذا القلق العظيم .